Route Educational & Social Science Journal

Volume 6(6); June 2019

Artical History

Received/ Geliş	Accepted/ Kabul	Available Online/yayınlanma
16.05.2019	10.06.2019	15.06.2019.

البعد السياسي و الديني لمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري

د. محمود علالي–جامعة عمار ثليجي بالأغواط–الجزائر–

الملخص

يعتبر الأمير عبد القادر من أهم الشخصيات التي ميّزت تاريخ الجزائر خلال القرن 19م، و ذلك من خلال مقاومته للاستدمار الفرنسي، حيث لم ترمز هذه المقاومة إلى الدفاع عن حقوق فئة معينة من الشعب الجزائري، بل كانت تدافع عن الدين و الأرض و العرض التي اشترك فيها كامل الشعب الجزائري. و أهمية الدراسة تبرز الدور الكبير الذي قام به الأمير عبد القادر من أجل تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة و إرساء قواعدها التي ترتكز على أساس الدين الاسلامي الذي ظل ديدنه و دستور معاملاته حتى مع غير المسلمين.

Abstract

Prince Abd-el-Kader is one of the most prominent personalities who distinguished the history of Algeria during the 19th century by resisting French destruction. This resistance did not symbolize the defence of the rights of a particular group of the Algerian people. It defended the religion, the land and the offer in which it participated. The entire Algerian people. The importance of the study highlights the great role played by Prince Abd-el-Kader in establishing the modern Algerian state and establishing its bases based on the Islamic religion that he and his constitution remained in place with non-Muslims.

مقدمة:

كان لهزيمة القوات العسكرية للجيش الانكشاري العثماني أمام فرنسا في معركة سطاوالي[1] التي حدثت في 19 جوان 1830 تأثير كبير على استسلام السلطة الرسمية التي كان يمثلها الداي حسين[2] في 05 جويلية 1830[3]، و بذلك انتقلت المقاومة المسلحة من العاصمة إلى المناطق الداخلية، حيث التف الشعب الجزائري حول القيادات المحلية التي تزعّمت الجهاد ضد التواجد الفرنسي في الجزائر، فكان أحمد باي في الشرق الذي التف حوله المجاهدون ليقود مقاومة باسلة سجلها له التاريخ بأحرف من نار و نور، و كان عبد القادر في الغرب الذي دخل الأحداث من بابها الأوسع بتحمله مسؤولية الجهاد و أثقال الامارة.

و تعتبر مقاومة الأمير عبد القادر من بين أهم المقاومات الشعبية المنظمة، ذلك أنها لم ترمز إلى المقاومة الإقطاعية التي تدافع عن حقوق فئة معينة من الشعب، بل نجد الأمير كان قائدا للمقاومة الفلاحية التي كانت تدافع عن الأرض و العرض و الدين.

1) شخصية الأمير عبد القادر:

ولد الأمير عبد القادر بن محي الدين في 22 رجب 1222هـ الموافق ل26 سبتمبر 1807[4] ببلدة القيطنة[5] قرب مدينة معسكر[6] و في وسط ديني محافظ، تعلّم القراءة و الكتابة و هو في الخامسة من عمره، و في سن الثانية عشرة كان متمكنا من القرآن و الحديث و أصول الشريعة، و لم يبلغ سن العشرين حتى كان قد طالع أمهات الكتب العربية في التاريخ و الفلسفة و اللغة و الفلك و الجغرافية[7]، و حتى الكتب الطبية منها و كانت خزانة كتبه أحب مكان إلى نفسه.

لم يكتف الشاب عبد القادر بتلقي العلوم الدينية و الدنيوية بل اهتم أيضا بالفروسية و ركوب الخيل و تعلم فنون القتال فتفوق في ذلك على غيره من الشباب. و بذلك كان عبد القادر من القلائل جدا الذين جمعوا بين العلوم الدينية و الفروسية، عكس ما كان عليه الوضع آنذاك إذ انقسم المجتمع الجزائري إلى المرابطين أي أبناء الزوايا المختصين في الدين، الذين كان لهم نفوذ واسع في أوساط المجتمع الجزائري، و الأجواد أي فئة الكراغلة[8] و الأتراك المختصين في الفروسية و فنون القتال و المستحوذين على المناصب الادارية و المالية.

لقد برزت شخصية الأمير عبد القادر من خلال المقاومة التي قادها من 1832 إلى 1847م ضد الاستدمار الفرنسي، بعد أن تمت مبايعته من طرف أهل الحل و العقد[9]، و لقّب عبد القادر بن محي الدين بالسلطان إلاّ أنه اختار لقب الأمير ناصر الدين، و بذلك يعتبر الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة التي ارتكزت على أسس و منطلقات دينية شملت عدة شعائر دينية هامة و قوية مثل: البيعة و الشورى و العدل و تسيير شؤون

المجتمع و فن التعامل مع الأسرى المسلمين و أهل الذمة، مستمدا ذلك من مبادئ و مصادر التشريع الاسلامي المتمثل خاصة في كتاب الله و السنة النبوية، حيث يذكر هنري تشرشل أن الأمير عبد القادر قال:"لن آخذ غير القرآن، لن يكون مرشدي غير تعليم القرآن وحده، فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات"[10].

2) جهود الأمير في بناء الدولة و محاربة الاحتلال الفرنسي:

ما إن تم تنصيب عبد القادر أميرا حتى بادر بتنظيم أمور الدولة، فأسس مجلسا للوزراء و مجلسا للشورى، و شرع في تكوين جيش جزائري و في إنشاء مؤسسات و في وضع قوانين مستمدة من تعاليم القرآن الكريم و سك عملة باسمه، و قسّم البلاد إلى ثماني ولايات و هي: تلمسان، معسكر، مليانة، التيطري، مجانة، بسكرة، برج حمزة، المنطقة الغربية من الصحراء، و عيّن على كل ولاية خليفة[11] كما نصّب باقي المسؤولين على الهيئات التشريعية و الاستشارية خاصة بعد المؤتمر الذي عقده بنواحي مليانة سنة 1838.

كان المصدر الأساسي للسلطة في الدولة الجزائرية الحديثة هي الشريعة الإسلامية التي حاول تطبيق تعاليمها بالالتزام برأي الجماعة، و الاعتناء بمؤسسات الشورى و دور القضاء غير منفرد برأيه و حيث أشرك العلماء من كل الجهات، و لا يتخذ قرارًا إلاَّ بعد إجماع من الأعيان و العلماء، حتى فيما يخص قضية الجهاد كان الأمير حريصًا على أداء هذا الفرض على أكمل وجه مع المجاهدين المتطوعين للجهاد و الشهادة.

أدرك الأمير عبد القادر منذ البداية ضرورة الحرص في اختيار صيغة خاصة لمعاملة الرعية، و استرجاع ثقتهم في الحاكم، فلم يجد غير العدل و المساواة لبعث الهدوء و الطمأنينة في نفوسٍ تعودت على الاستنفار الدائم مع الحكام بسبب الظلم و الجور، كما أدرك أيضًا دور الأحكام التي تصدر عنه في توجيه هذا المجتمع و في تقوية ركائز الدولة. فكان حريصًا على البدء بنفسه و بالمقربين، حيث تساوى الجميع في إعلان كلمة الجهاد، و واصل هذا النهج في كل محطات بناء الدولة كاختيار الكفاءات المشيِّدة لها ثم تبيّنت له أهمية العلم في المجتمع الصالح و نتائج ذلك في بناء الدولة، فراح يبذل قصارى جهده ليُحبِّب العلم و الكتب لجنوده و لشعبه، جاعلا معركة الجهاد موازية لمعركة محو الجهل، و بناء المدارس و تشكيل المكتبات.

و حفاظا على هذا التطور الجديد أعاد بعث و إحياء روح الشريعة الإسلامية، لما لها من قدرة على حفظ التعاملات بين الأفراد و تقوية للروابط بداخل المجتمع و تقريبهم من الله عزَّ و جل و من الحق و الاستقامة، بتوجيه من الدين الإسلامي بمحاربته للتقليد و التواكل، فتؤكد هذه القضايا كلها على البعد الديني في دولة الأمير و على بعد رؤيته الفكرية.

أما جهوده في محاربة الاستدمار الفرنسي فقد سطّرها في برنامج شامل و إرساء قواعد دولة إسلامية مستقلة، تمثل هذا البرنامج في النقاط التالية:

- تحقيق الأمن، و القضاء على الخونة و المأجورين.
- توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد.
- مقاومة الاحتلال الفرنسي بشتى الطرق و الوسائل.
- إرغام الفرنسيين و دفعهم للاعتراف بالجزائر دولة مستقلة، و بعبد القادر أميرا عليها.

فبدأت المواجهات بين الأمير و الاستدمار الفرنسي بمحاصرته لوهران و مستغانم، و هذا ما أرغم الفرنسيين على الاعتصام داخل القلاع و الحصون، و بعد فشل بوايي في إفشال الحصار عزل و عيّن مكانه ديمشيل، الذي فشل بدوره في التصدي للأمير عبد القادر، فطلب الصلح و عقد هدنة مع الأمير عبد القادر بتاريخ 26 فيفري 1834، و تضم هذه المعاهدة ستة بنود مكتوبة على أعمدة متوازية بالعربية و الفرنسية، قد وقّعها و ختمها الطرفان الأمير عبد القادر و ديمشيل معا، حيث يتم بموجبه احتكار تصدير الحبوب واستيراد الأسلحة[12]، و هذا ما سبّب لديمشيل الاقالة من منصبه فيما بعد. و نذكر على سبيل المثال بعض من نصوص هذه المعاهدة[13]:

أ) وقف المعارك بين الطرفين و تبادل الأسرى.

ب) احترام الفرنسيين للمسلمين و مناطق سكناهم.

ت) لا يدخل أي طرف أرض الطرف الآخر إلاّ بإذن من قنصله لدى الطرف الآخر.

ث) يحق للأمير شراء الأسلحة و كل ما يحتاج إليه من المواد الحربية، و أن يكون ميناء أرزيو تحت سلطة الأمير.

ج) أن يبقى الفرنسيون في وهران و مستغانم و يحترموا المسلمين.

كانت هذه محاولة من السلطة الفرنسية لكسب الوقت و إعداد العدة لهجوم جديد على الأمير عبد القادر، لكنها في الوقت نفسه خدمت الأمير عبد القادر بدوره فهو لم يتمكن بعد من تأسيس جيش وطني قوي، فرغم كثرة جنده و الذي كان حوالي 60000، إلاّ أنّه لم يكن نظاميا فمعظمه من المتطوعين، زد على ذلك لا يمكن جمع هذا الجيش في وقت واحد لأنّه موزع بين القبائل المنتشرة هنا و هناك[14].

بعد عزل ديمشيل من قيادة وهران في 15 جانفي 1835، عيّن خلفا له الجنرال تريزيل في 20 جانفي 1835[15] الذي نقض المعاهدة المبرمة مع الأمير عبد القادر، و ألب قبائل الدوائر و الزمالة[16] على الأمير عبد القادر فتجدد القتال في 2 جويلية 1836، و مني تريزيل بهزيمة كبيرة في معركة المقطع.

كانت الإدارة الفرنسية تواجه مقاومة قوية من طرف الأمير عبد القادر في الغرب و كذلك مقاومة لا تقل عنها في الشرق و هي مقاومة أحمد باي، لذلك قررت أن تتفرغ كلية لواحدة قبل أن تعود للأخرى، لذلك أوكلت للجنرال بيجو مهمة محاربة الأمير في الغرب الجزائري، و قد دخل هذا الجنرال عام 1837 في مفاوضات مباشرة

مع الأمير عبد القادر، انتهت بتوقيع معاهدة التافنة في 30 ماي 1837، و اعترفت هذه المعاهدة بسيادة الأمير على ثلثي القطر الجزائري،كما أقرت بتبادل القناصلة مثل:القبطان دوماس من طرف فرنسا لدى الأمير بمعسكر(1837-1839)، و كذا الإيطالي جرافاني قنصل أمريكا بالجزائر الذي عيّن لتمثيل الأمير لدى السلطات الفرنسية في 12 أكتوبر 1837.

و رغم التزام الأمير بالعهود[17] و المواثيق مع فرنسا اقتداء بسيرة النبي مُحَمَّد صلى الله عليه و سلّم في تعامله مع الكفار، إلاّ أن المارشال الفرنسي فالي بادر إلى خرق معاهدة التافنة بعبور قواته الأراضي التابعة للأمير، فتوالت النكسات على الأمير خاصة بعد تخلي بعض القبائل عنه و انتهاج فرنسا لأسلوب الأرض المحروقة،كما هي مفهومة من عبارة الحاكم العام الماريشال بيجو:"لن تحرثوا الأرض، و إذا حرثتموها فلن تزرعوها، و إذا زرعتموها فلن تحصدوها"، فلجأ الفرنسيون إلى الوحشية في هجومهم على المدنيين العزل فقتلوا النساء و الأطفال و الشيوخ، و حرقوا القرى و المدن التي تساند الأمير.

و بدأت الكفة ترجح لصالح السلطة الفرنسية بعد استيلائها على عاصمة الأمير تاقدامت 1841 ثم سقوط الزمالة-عاصمة الأمير المتنقلة-سنة 1843، و على إثر ذلك اتجه الأمير إلى المغرب الأقصى في أكتوبر عام 1843، حيث ناصره السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان في أول الأمر ثم اضطر إلى التخلي عنه على إثر قصف الأسطول الفرنسي لمدينة طنجة و الصويرة، و تحت وطأة الهجوم الفرنسي اضطر السلطان المغربي إلى طرد الأمير عبد القادر، بل و تعهد للفرنسيين بالقبض عليه، الأمر الذي دفع الأمير إلى العودة إلى الجزائر في سبتمبر 1845 محاولا تنظيم المقاومة من جديد.

و إجمالا يمكننا القول أن ظروف الحرب التي صاحبت نشأة دولة الأمير لم توفر له سوى فترتي هدوء قصيرتين اهتم إبانها فعلا ببناء دولته، الأولى بين 1834 تاريخ توقيعه معاهدة ديميشال Desmichels، و 1836 تاريخ اندلا ع العمليات الحربية من جديد بين قواته و قوات الفرنسيين و هي السنة ذاتها التي عرفت معارك عنيفة كالمقطع و التافنة و السكاك. أما الثانية فتبدأ بتاريخ توقيع معاهدة التافنة عام 1837 و تنتهي عام 1839، تاريخ خرق الماريشال فالي Valée بعبوره البيبان نحو قسنطينة في 28 أكتوبر بنودها. و قد كان تركيز الأمير على إنشاء جيش حديث و صناعة حربية، خلال فترتي الهدنة هذه وراء غلبة السمة العسكرية على دولته. و إذا أضفنا اعتماد الأمير على الطرقيين[18] في قيادة جنوده و تسيير أمور دولته، إلى تلك السمة فإننا نفهم بسرعة طابع دولة الجهاد التي أسسها و التي جاء تنظيمها على الشكل الآتي:

يحكم الدولة الأمير نفسه انطلاقا من عاصمته في معسكر، ثم من الزمالة عاصمته المتنقلة و يساعده وزير و كاتبين و حاجب. أما حكومته فتتكون من سبع وزارات أو نظارات هي: نظارة الأمور الداخلية، الخارجية،

المالية، الأوقاف، الأعشار و صنوف الزكاة، دار ضرب السكة و الأسلحة و معاملها، الخزينة الخاصة. و تتمثل مهامها في مناقشة كافة المسائل في مجلس الشورى المتكون من 11 عضوا، الذي يرأسه قاضي القضاة.

كما قسّم الأمير عبد القادر دولته إلى 8 مقاطعات، يحكمها بواسطة خلفاء و دور الشورى هي: تلمسان و معسكر في الغرب؛ مليانة و المدية و برج حمزة في الوسط؛ مجانة و الصحراء الشرقية (ميزاب) و الصحراء الغربية (جبال عمور و الأغواط) في الشرق؛ كما قسّم المقاطعات إلى أغاليقات و حكمها بواسطة أغوات، تضم قبائل يحكمها قادة، تنقسم بدورها إلى بطون و عشائر وُضعت تحت إمرة شيوخ. و قد عين الأمير قاضيا مالكيا لكل مقاطعة، يعمل تحت إمرة قاضي القضاة. و للحيلولة دون الخلط بين القضايا، نصب قاضيا عسكريا،كما عمل على إنشاء المدارس و المستشفيات و مراكز تدريب الجيش[19] و المعامل الحربية و تنظيم شؤون الضرائب. إلا أنه عانى الكثير في سبيل صيانة دولته و تدعيم قوتها من عدة جوانب منها:

- ✓ صعوبة إخضاع القبائل التي تدخل نظريا ضمن دائرة دولته[20]، مما حرمه من الكثير من مصادر التمويل؛ فقد اضطر عام 1839 إلى إضافة ضريبة جديدة، تدعى"المعونة"، للتعويض عن شح موارد الخزينة.
- ✓ غياب التنسيق بين قياداته واستنزاف الكثير من القبائل المتعاونة مع الفرنسيين لمجهوداته، و خاصة العسكرية و التنظيمية منها.
- ✓ تفوق الفرنسيين عددا و عتادا على جيشه، ففي عهد الجنرال بيجو مثلا الذي حكم الجزائر من 1840 إلى 1847، ارتفع عدد جنودهم من 63 ألفا سنة 1840 إلى 83 ألفا بعد سنتين من ذلك، و من 90 ألفا سنة 1844 إلى 108 ألفا سنة 1846.
- ✓ تعهد سلطان المغرب، وفق ما أملته عليه اتفاقية لالة مغنية مع الفرنسيين في 1844/9/10، بمحاربة الأمير عبد القادر.

و مهما يكن من أمر فإن نشأة دولة الأمير عبد القادر في ظروف خاصة دفعه إلى اقتباس نظام دولته السياسي و الإداري و المالي، المطابق لواقع المجتمع القبلي من العثمانيين، إلا أنه أحدث بعض التغييرات عليها مما عكس شدة تمسكه بتعاليم الإسلام، فقد ألغى مثلا نظام الامتيازات الذي كانت تتمتع به قبائل المخزن، و جعل الناس جميعا متساوين في دولته أمام القانون،كما عمل على توحيد شمل الجزائريين منذ إعلانه الجهاد في نوفمبر 1832.

3) مظاهر البعد الديني و الانساني في مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري:

حافظ الأمير عبد القادر في تأسيس دولته و في تسيير المقاومة ضد الاستدمار الفرنسي على عدة عناصر أساسية مستمدة من الشريعة الإسلامية، فقد أراد بالبيعة أن يحي سنة حميدة كادت أن تندثر، و تعتبر البيعة من الأسس الخالصة الحقيقة لبناء دولة الإسلام، حيث انطلق الأمير من كتاب الله الذي أثنى على رسوله الكريم مُحَمَّد(ص)بقوله:﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه و من

أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما﴾[21]، و بذلك تلقى الأمير من أهل البلاد بيعة صادقة على أن لا يفروا عند لقاء العدو الفرنسي مهما كانت الظروف و الأسباب.

و هذا ما مكّن عبد القادر بعدها من لعب دوره كاملا، من خلال بنائه لأسس هامة يكسب بها ثقة مبايعِيهِ، و بإنشاء مؤسسات جديدة و فعّالة تسيّر شؤون الحرب و السلم معًا، خاصة إذا ما علمنا الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الجزائر بعد سقوط السلطة التي كان يمثلها الداي حسين، فقد قدم لنا صاحب كتاب(زهرة البساتين في بيان الاسم الأعظم بالأدلة و البراهين)[22]، الحال الصعبة التي كانت تخيم على الجزائر آنذاك، حيث يقول:"في هذه السنة التي هي المحرم سنة 1248هـ، فقد اشتدت فيها المحن و كثرت الفتن من يوم خربت الجزائر، و ثغر وهران بسبب الروم الفرانصيص فخلت الأرض من الحكام، و كثر القتل و الهرج و الخصام و تعطلت الشرائع و عمت الذرائع و ذلك من عمالة تونس إلى بلاد وجدة و المؤمن في حيرة،كالشاة في الليلة المطيرة، و إن كان للحكام ظلم و جور فهم أولى من أهل الفسوق و الفجور، و بفقد الحاكم يفسد الدين و الدنيا و يموت الإنسان ميتة جاهلية". و نجد نفس هذا الوصف يذكره الشقراني:"و قد دخلها هؤلاء الفرنسيين صحوة يوم الاثنين في أول الصيف في أربعة عشر من سنة ست و أربعين و مائتين و ألف و في الشهر المذكور دخلوا وهران، و فرّ المسلمون منها و انتشروا مع الطرق و انتهبوا ما بأيديهم من الأموال و الأمتعة، و ثار الثوار بعضهم على بعض بالقتل و شن الغارات و أخذ الأمتعة، و وقع الفرج و الفزع في الناس و وقعت حروب كثيرة بين قبائل المسلمين، فلا حول و لا قوة إلاّ بالله و استمروا على نحو السنتين حتى منّ الله على المؤمنين باتفاق من وفقه الله للهداية، و ظهرت عليه العناية من رؤساء القبائل و كبرائهم و صناديدهم و زعمائهم و وزرائهم و أهل الفضل و النهي منهم، بنصب إمام عدل يبايعونه و يتابعونه و يسمعون لأمره..."[23]. و هكذا يمكننا القول أن الأمير جمع بين السلطتين الدينية و الحربية.

كما لا يمكننا أن نهمل مبدأ الشورى الذي أراد الأمير أن يلتزم به في تسيير شؤون دولته، حيث تمكن بفضلها من كسب أغلبية المناصرين، و أراد بتركيزه على هذه الدعامة الأساسية إرضاء الله عز و جل، و تجسيدا للنص القرآني:" و شاورهم في الأمر"[24]، و"و أمرهم شورى بينهم"[25]. فحاول الأمير من خلال ذلك أن يكون خير خلف لخير سلف بالإقتداء بالرسول صلى الله عليه و سلّم، فأسّس مجلس شورى و نظّم باقي مؤسسات دولته.

و لم يهمل الأمير مبدأ الجهاد من قاموسه القتالي، حيث أدرك أنه هو بذل الوسع و تحمل المشقة إيمانا بما يحمله من معاني قدسية روحية قد تتحقق في السلم أو الحرب على حدٍ سواء[26]،كما تبيَّن ذلك في القرآن الكريم:﴿و جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله﴾[27]، و هو بذلك فرض عين و ممارسة ضرورية و لازمة لاسترداد كرامة المسلمين، و الواجب الإخلاص فيه فرديا و جماعيًا، مصداقا لقوله تعالى:﴿و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا و

إن الله لمع المحسنين﴾[28]. و بذلك فرضت الضرورة على الأمير عبد القادر إعلان الجهاد ضد التواجد الفرنسي، خاصة إذا ما علمنا أن الاحتلال الفرنسي للجزائر كان يكتسي صبغة دينية مسيحية ضمن إطار الحروب الصليبية. فالجهاد إذن جزء لا يتجزأ من الإيمان، حيث يأتي في المرتبة الأولى بعد أركان الإسلام الخمسة، لأنه فرض عين فهو دين و عبادة و تقوى.

و بهذا التكليف حصل عبد القادر على مبايعة الجميع فكان الامتثال لأمره و لأوامر الدين، فقد كان الأمير مؤمنا بأن الدين هو العنصر الوحيد القادر على إعطاء الفعل و التصرف الإنساني كالمقاومة. لذلك استمد شرعيته القيادية من جميع المؤمنين الذين اعتبروه المدافع الأول عن الإسلام، و رضي الأمير بلقب أمير المؤمنين و ناصر الدين.

و يرى الأمير عبد القادر أن المسلم ليس بذلك المتعطش للدماء و القتال، بل هو الذي يفرق بينهما حتى و لو كان القِتال لهدف عادل و مشروع، لأن الجهاد يتطلب شروطا مُعينة:

أولها أنه يتطلب إخلاص النية، شرط كل العبادات في الإسلام ليبتعد المقاتل عن كل الأغراض الشخصية و يسمو إلى منزلة المجاهد.

ثانيا:أن الجهاد مشروع بعد الظلم فهو لا يعرف الاعتداء و الظلم على غير المقاتلين في المواجهة.

ثالثا:أن الجهاد هو باب من أبواب الجنة، فالمقتول في ساحة الجهاد يسمى شرَفا بالشهيد، لما سيلقاه من أجر و ثواب لا يناله غيره في ساحات أخرى.

رابعًا:ارتباط الجهاد بباقي العبادات، و أهمها الصلاة مما يعطي المجاهد اخلاصًا متواصلا لله، و حالة عالية من الاستعداد.

و يقول الأمير في إحدى قصائده واصفا فضل الجهاد على العبادة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب

ريح العبير لكم و نحن عبيرنا وهج السنابك و الغبار الأطيب

بالإضافة إلى ما ذكرناه نجد أن شخصية الأمير زادت قيمتها التاريخية من خلال معاملته الراقية للأسرى و التي أعطت صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه الرجل المصلح المعبر عن الشخصية المسلمة، فقد كان متشبعا بقيم الحضارة الإسلامية منذ صغره، و مدركا للأبعاد الإنسانية التي كان ينتهجها النبي(صلى الله عليه و سلم) في حروبه ضد المشركين، فعن أنس بن مالك(ﷺ)أن رسول الله كان إذا بعث جيشا فإنه يقول:"انطلقوا باسم الله لا تقتلوا شيخًا فانيا و لا طفلا صغيرًا و لا امرأة و لا تغلو و لا تغدروا و لا تمّثلوا و لا تقتلوا وليدًا و ضموا غنائمكم و

أصلحوا و أحسنوا"، كما كان يوصيهم بأن لا يقطعوا الأشجار أو يحرقوا الزرع، و لا يتعرضوا حتى للناسك في حال العبادة... و أن لا يجهزوا على الجرحى.

و نتيجة لذلك كان الأمير يأمر رجاله بعدم قتل الأسرى، و يوصي رجاله بالالتزام بذلك فكل عربي في حوزته فرنسي يعتبر مسؤولا عنه حسب معاملته، فإن حافظ على هذه الأمانة يأخذ مكافأة، و إن فشل بشكوى من السجين بعد إساءة معاملته فإنه يُحرم من الجائزة، و كان غاية الأمير أن يعامل الأسرى وفق قانون الأسرى إلى أن تحين مبادلتهم فتكون الاستفادة هامة.

كما كان الأمير رحيما بالمرأة الأسيرة، حيث كان منظر النساء السجينات يزعجه، حتى أن مجرد التفكير في أن تصبح المرأة ضحية للحرب كان في حد ذاته مصدر قلق دائم له، و لهذا كان يوصي فرسانه بأن لا يتعرضوا للحريم. و صادف الأمير أن أحضر له أحد فرسانه أربع فتيات كغنيمة حرب هامة، فأدار وجهه اشمئزازا، و قال في سخرية:"أن الأسود تهاجم الحيوانات القوية، أما أبناء آوى فتسقط على الضعيفة منها، و لهذا كان يحضر الأسيرات، من السيدات الفرنسيات جميعا إلى الزمالة، و لأن معضمهن تعرضن كغيرهن من الجزائريات، إلى حمى الملاريا، ما عدا طفلة اسمها ماريا، حسب سكوت أرسلت إلى مليانة، لتسلم إلى الفرنسيين مع غيرها من الأسرى في إطار تبادل الأسرى، و ما تبقى منهن كانت ترعاه أم الأمير بنفسها و تقدم لهن عناية فائقة، فحين جمعهن في خيمة قريبة من خيمتها المحروسة من طرف زنجيات، و في كل صباح تهديهم الزيت و الزبدة و اللحم[29].كما كانت عنايتها بالمريضات منهن تتمثل في منحهن الشاي و السكر و القهوة و كل شيء قد يخفف عنهن الألم و يُوفر لهن الراحة، من مواد غذائية ضرورية و حتى كمالية[30].

و قد وصف أحد الأسرى معاملة الأمير، مبينا تواضعه مع الأسرى قائلا:"عندما مررت بالسلطان حياني بجلال فريد، و ابتسامة مدهشة و أشار إليَّ بيده للجلوس، ثم سألني رأيي في بناء التحصينات، فأجبته بأنها تظهر لي جيدة ...و يبدو أنه قد سر كثيرًا من جوابي"[31].

و رغم ذلك حاول القادة الفرنسيون إخفاء رحمة الأمير بالأسرى، فقد ذكر أحد القادة العسكريين: "ينبغي لنا أن نخفي هذا الأمر و نكتمه عن العسكر لأنهم إن علموا به لا يتأتى لنا أن نحارب عبد القادر بالترتيب المناسب"[32]، و يؤكد لنا سكوت أن كل التقارير التي كان يكتبها الفرنسيون عن الأسرى هي تقارير مُزيفة، تزعم أن الأسرى لا يلقون أية عناية و أن هذه الأقوال مخالفة للحقيقة تماما"[33].

أما عن الأبعاد الإنسانية و العالمية في مقاومة الأمير عبد القادر فنلمسها في موقفه الإنساني المتمثل في إنقاذ عدد كبير من المسيحيين المحاصَرين و العالقين في أثناء حرب دمشق الشهيرة بين المسيحيين و الدروز عام 1860م.

فمهما اختلفت الروايات حول أسباب هذه الفتنة الدينية[34]، إلا أن شرارتها انطلقت بدمشق يوم الاثنين 12 ذي الحجة عام 1276هـ الموافق ل10 يوليو 1860، و امتد لهيبها لتصبح مذبحة كبرى[35]، و استطاع الأمير عبد القادر بشجاعته المعهودة أن يحشد الآلاف من الجزائريين للذود عن المسيحيين و حمايتهم من المجزرة، حيث احتمت الآلاف من العائلات المكونة من النساء و الأطفال و الشيوخ في بيته، و نجح الأمير كذلك في اقناع الدروز القادمين بغية قتل ما تبقى من المسيحيين بالعدول عن تلك النية اللاإنسانية[36].

و إثر هذا الموقف النبيل، نال الأمير كل رسائل الاعجاب و التقدير من ملوك و أباطرة أوروبا و قلّدوه بعدة أوسمة و نياشين. و مما كتب له رسالة من الأمير الداغستاني شامل[37] المعتقل في كالوغا في 1أوت 1860:"أنا فرح بك لقد أعدت إحياء كلمة الرسول و وضعت حدا لمن يخون عهوده"، و رد عليه الأمير عبد القادر في 15 أوت من نفس السنة:"إنّ ما فعلناه بحق المسيحيين لم يكن سوى ما يمليه الواجب الديني و الانساني"[38].

خاتمة:

يعد الأمير عبد القادر الجزائري من الرجال القلائل الذين جمعوا بين تأسيس الدولة و الفكر، بحيث لا يمكن تنافي دوره في العالم العربي الإسلامي، و لا إزالة فكره و ذكره من الأذهان، رغم محاولات عديدة لاختلاس هذه الذاكرة، أو محاولة تشويهها أو طمسها، رغم الهزيمة التي يراها البعض بمثابة الموت المعنوي أو الكلي. يبقى الأمير من الزعماء الذين ذاع صيتهم أكثر بعد الاستئمان و إلقاء السلاح، و لم ينته الأمير و لا دوره بل تواصل بفضل مآثره التي جلبت له احترام و اهتمام المطلعين عليها.

و لهذا يعد الأمير كنموذج للحاكم المثالي لأنه لعب عدة أدوار في نفس الوقت بحيث اجتمعت فيه كل الوظائف الإنسانية المخولة لصنع شخصية البطل، في الدين و العلوم و التربية و الاقتصاد و المعاملات، و كذلك دور القدوة لكل الأجيال، لأنه ترفّع عن كل كبر تافه على الإنسان، و تعامل بذلك مع الجميع بروح علمية و إنسانية ساعده على ذلك عوامل عدة منها، نسبه الشريف و البيئة التي احتضنته و الزاوية القادرية التي ربته ملأ للفراغ الروحي و الثقافي الذي كان يعيشه المجتمع بسبب عزلة الحكام.

كان الأمير الصوفي المثالي في العالم الإسلامي الذي ربط بين الخلوة و الواقع العلمي في سلوكاته و معاملاته و مواقفه العامة و الخاصة، فأبهر أعداءه بالذكاء و الشجاعة و الصمود،كما عرف الغرب المعنى الكامل للتصوف

الإسلامي. و يبقى عبد القادر الإنسان الخير الذي يشهد له الجميع بذلك هو نفسه من تعرض للخيانة و التراجع و إنهاك قوى جيشه من إخوانه في الدين قبل أعدائه من الفرنسيين.

الاحالات:

[1] حدثت بين الجيشين الجزائري و الفرنسي في غرب العاصمة بالقرب من ميناء سيدي فرج، و يرجع سبب الانهزام إلى جهل قائد الجند إبراهيم أغا إلى فنون القتال الحديثة.

[2] اختار حسين داي مالطة كمكان لنفيه ثم غيّرها إلى ليفورنيا فنابولي بإيطاليا، و نقل إلى الإسكندرية أين توفي في سنة 1838. أنظر: **أبو القاسم سعد الله**، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء1، القسم1، (المؤسسة الوطنية للكتاب 1992)، ص19.

[3] **C.Rousset**, La conquête d'Alger,(Éd. Plon, Paris,1880),p.140.

[4] تذكر بعض المراجع أنه ولد في مطلع عام 1223هـ الموافق لسنة 1808م، أنظر:**محمد العربي الزبيري**، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، (نشر مشترك:الشركة الوطنية للنشر و التوزيع و المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، سبتمبر 1982)، ص12.

[5] القيطنة: تبعد عن مدينة معسكر ب28كلم، بناها مصطفى المختار جد الأمير سنة 1206هـ/1791م، كانت مقصدا لطلاب العلم للزاوية القادرية.

[6] **محمد السيد علي الوزير**، الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته و أثرها في أدبه، (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986)، ص15.

[7] لازم القاضي سيدي أحمد بن الطاهر بمدينة أرزيو الذي تعلّم على يديه علم الفلك و الحساب و الجغرافيا و التاريخ المعاصر. أنظر: **محمد العربي الزبيري**، المرجع السابق، ص12.

[8] طبقة الكراغلة أو القولوغلية من أب تركي و أم جزائرية. أنظر: **صالح فركوس**، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، (دار العلوم للنشر و التوزيع، 2005)، ص124.

[9] تمت المبايعة الأولى أو الخاصة بتاريخ 27 نوفمبر 1832 بوادي فريحة في سهل غريس تحت شجرة الدردارة اقتداء بسنة النبي محمد صلى الله عليه و سلم عند مبايعته تحت شجرة سمرة و مصداقا لقوله تعالى:﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم و أثابهم فتحا قريبا﴾، أما البيعة العامة فكانت بتاريخ 4 فيفري 1833.

[10] **هنري تشرشل**، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، (الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،1982)، ص58، 59.

[11] من أبرز خلفاء الامير في المرحلة الاولى(1832-1837) مصطفى بن التهامي خليفة معسكر و ملود البوحميدي الولهاصي خليفة تلمسان و محمد بن علال خليفة ملیانة و محمد بن عيسى البركاني خليفة المدية،أنظر: **ابو القاسم سعد الله**، المرجع السابق، ص212.

[12]- **العربي إسماعيل**، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، (د.م.ج.،الجزائر،1982)، ص68.

[13]- هنري تشرشل(شارل)، المصدر السابق، ص،ص78، 79.

[14]- نفسه، ص140.

[15]- **العربي إسماعيل**،المرجع السابق،ص،ص71-75.

[16] - ترجع التسمية إلى عهد محمد الكبير باي الغرب الجزائر،سميت قبائل الدوائر لأنها كانت تشكل دائرة حول الباي عندما يحط رحاله خارج عاصمته،أما الزمالة فكانت تتولى حمل أمتعة الباي و أثقاله.أنظر: **العربي الزبيري**،المرجع السابق، ص38

[17] للإطلاع أكثر حول مدى التزام الأمير بالعهود أنظر الكتاب المترجم حول مذكرات الأمير:
L'Emir Abdelkader Autobiographie,écrite en prison(France 1849),traduction, H. Benmansour, (Edition Dialogues, Paris, 1995).

[18] أي أبناء الزوايا منهم محمد بن علال من القليعة، ابن عزوز ولد حسان من طولقة، سي أحمد بن سالم من منطقة القبائل، محمد البركاني من المدية ... الخ. **أبو القاسم سعد الله**، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص122.

[19] إذا استثنينا القوات المتطوعة، فإن عدد جنوده تراوح بين 5 و 8 آلاف رجل في سلاح المشاة و بين 1500 و 2000 فارس و ما يناهز 200 رجل في سلاح المدفعية، نفسه.

[20] سوف يشكل تعاون الكثير من القبائل مع السلطات الاستعمارية ظاهرة ملفتة للانتباه و سوف يشغل ذلك التعاون طول فترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر كلها.

[21] الآية 10 سورة الفتح.

[22] كتاب زهرة البساتين،صاحبه هو **محمد العربي بن أويس** بن محمد بن عبد القادر بن أحمد المعروف بإبن خدة الراشدي، يجتمع مع الأمير في جده الرابع سيدي عبد القادر قادة بن مختار، نجده في كتابات الأميرة بديعة، محمد العربي بن طاوس بن محمد بن عبد القادر.

[23] **أحمد بن عبد الرحمن الشقراني**، القول الأوسط و أخبار من حلّ بالمغرب الأوسط، ص34.

[24] الآية 159 سورة آل عمران.

[25] الآية 38 سورة الشورى.

[26] **محمد لحبيب بن خوجة**،" دور الإسلام في الكفاح التحريري"، ملتقى الفكر الإسلامي السادس،(13 جمادى الثانية،رجب 1392ه/24جويلية 10أوت 1972 م بالجزائر، مج1، قسنطينة، دار البعث، 1393 ه/1973)، ص1.

[27] الآية 15 سورة الحجرات.

[28] الآية 69 سورة العنكبوت.
[29] **سكوت الكولونيل**، مذكرات عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر،(1841) ،ترجمة إسماعيل العربي،(الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر)، 1981، ص91 .
[30] هنري تشرشل،حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص204 .
[31] نفسه، ص138 .
[32] **محمد بن عبد القادر الجزائري**، تحفة الزائر، ص467 .
[33] **سكوت**،المصدر السابق،ص67 .
[34] تعود جذور هذه الأزمة إلى سنة 1841 حين اشتبك الدروز المسلمين مع الموارنة المسيحيين، و قد لعبت الدول الأوروبية دورا كبيرا في إذكائها.للإطلاع أكثر أنظر: **حنا، عبد الله**، حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، نموذج المدن في ظل الاقطاعية الشرقية، (ط1، بيروت، دار ابن خلدون، 1985)، ص47.
[35] ذكرت المصادر الكاثوليكية أن حصيلة المجزرة بين سوريا و لبنان هو 12900، أما المصادر العثمانية فذكرت ما تعداده 11500 ضحية. أنظر:
Agéron, Charles-Robert, "Abd-el-Kader souverain d'un royaume arabe d'orient", In: Revue de l'occident musulman et de méditerranée, n°8, 1970,unica, p.16.
[36] **بوعلام بسايح**، "عبد القادر في دمشق و إنقاذ إثني عشر ألف مسيحي: الأمير الإنسان العالمي"، ورد في مؤلف جماعي، الأمير عبد القادر و حقوق الإنسان: منظور الأمس و منظور اليوم. فعاليات الملتقى الدولي بالجزائر 24-25 ماي 2008، (منشورات مجلس الأمة، الجزائر)، ص24.
[37] الإمام شامل الداغستاني(1797-1871) قائد سياسي و ديني أفاري في شمال القوقاز، و أحد أشهر المقاومين للوجود الروسي في القوقاز.
[38] هناك تباين في كتابات المؤرخين إلى من كتب هذه الصيغة، فالبعض يورد أنها كلمة لملكة بريطانيا و البعض الآخر أنها لشامل، بينما يذكر لنا هنري تسيبي(أسقف الجزائر) في مؤلف جماعي حول الأمير أنها وردت كإجابة من الأمير لمونسنيور بافي Pavy برسالة مؤرخة بشهر محرم 1279هـ الموافق ل 10 أو 11 جويلية 1862م تتضمن كاملة: " و الذي فعلناه من الخير مع المسيحيين هو شيء لازم علينا بمقتضى الشريعة المحمدية و حقوق الإنسانية، إذ الخلق كلهم عيال الله تعالى و أحبهم إليه تعالى أنفعهم لعياله و جميع الشرائع التي جاءت بها الأنبياء من آدم إلى محمد تدور على أصلين: تعظيم أمر الله تعالى و الشفقة على مخلوقاته، و ما عدا هذين الأصلين فروع لا يضر اختلاف الشرائع فيها، و شريعة محمد أشد الشرائع التزاما و محافظة على الرقة و الرحمة و كل ما يستوجب الائتلاف و يدفع الاختلاف". أنظر: **هنري تيسيبي**، "الأمير، حقوق الإنسان، الهوية الدينية و التسامح"، في الأمير عبد القادر و حقوق الإنسان، المرجع السابق، ص50.